القدوة الحسنة

في

منهج الدعوة الى الله

محمد بن علوي بن عباس

المالكي الحسني

غفر الله له ولوالديه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد فهذه نفحات موجزة عن منهج الدعوة الإسلامية وعن حقيقة القدوة الحسنة فى سبيلها نفعنا الله بها وجعلها خالصة لوجهه الكريم ، آمين .

محمد علوى المالكى
مكة المكرمة

القدوة الحسنة فى منهج الدعوة
ضرورة الرجوع إلى السيرة النبوية

إن السيرة النبوية وسير الصحابة رضى الله عنهم وتاريخهم هى القدوة الحسنة فى مناهج الدعاة ، والمصدر الكبير لقوتهم الإيمانية وعاطفتهم الدينية ، يقتبسون منها شعلة الإيمان ، ويشعلون بها مجامر القلوب ، يرون فيها دعوة إحتضنها الإيمان والصدق فهانت فى سبيلها الأنفس على أصحابها ، والأموال على أربابها ، والعشيرة على أهلها ، واستعذب العذاب لأجلها ، وتتابعت الرحلات لنشرها فى مشارق الأرض ومغاربها ، وسهولها وحزونها ، وأغوارها وأنجادها ، فنسيت فى ذلك اللذات وهجرت الراحات ، وتركت الأوطان ، وبذلت المهج وحرّ الأموال حتى أفضى اليقين على القلوب ، وسيطر على النفوس والعقول ، وأقبلت القلوب على الله ، وهبت ريح الإيمان قوية عاصفة طيبة مباركة ، وقامت دولة التوحيد والإيمان والعبادة والتقوى ، وانتشرت الهداية فى العالم ، ودخلت الناس فى دين الله أفواجا .

ومن هنا اشتدت عناية المصلحين والمجددين بهذه السيرة المباركة لتكون قدوة حسنة ، ومادة لتجديد البعث الجديد فى حياة المسلمين ،

وإيقاظ هممهم ، وإلهاب قلوبهم بجذوة الإيمان والحماسة الدينية ، وليس لمجرد الوقوف على الوقائع التاريخية أو سرد القصص والأحداث ، بل لمشاهدة الحقيقة الإسلامية فى مجموعها العملى التطبيقى مجسدة كاملة فى مثلها الأعلى محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام .

ونستخلص من هذه السيرة العطرة والتاريخ المجيد بالنسبة للدعوة الأسلامية :

(مقدمة) هى طليعة الخير وإشارة النور والفلاح لتهيئة أسباب الدعوة وبناء أسسها وتأصيل أصولها .

و (باب) هو الإخلاص الذى يتمثل فى تجردها من الأهواء والأغراض ، و (عمل جاد) هو المجاهدة الكاملة المطلقة لتربية النفس .



الإعداد للدعوة وتهيئة أسبابها

وفى مقدمة الدعوة تتم تهيئة أسباب الدعوة ، وتجميع القوى ، ومراعاة ما يحتاجه الحال والواقع .

لقد مرت الدعوة الإسلامية منذ بعثة النبى ﷺ إلى أن ارتحل إلى الرفيق الأعلى بمراحل مختلفة استمرت الدعوة سراً ثلاث سنوات ، ثم انتقلت إلى مرحلة الجهر باللسان دون قتال إلى الهجرة ، ثم انتقلت إلى حركة قتال المعتدين والبادئين بالقتال والشر إلى صلح الحديبية ، ثم انتقلت إلى قتال كل من وقف فى سبيل الدعوة .

وكان من جملة تهيئة أسباب الدعوة بعث الكتب ومراسلة الملوك ورؤساء العالم يدعوهم إلى الإسلام ونبذ ما هم عليه من الأديان الباطلة ، ثم اختار الرجال الذين يقومون بهذه المهمة بشرط أن يكون كل رجل يتقن لغة القوم الذين بعثه إليهم .

وهذا كله يدل على أنه ينبغى على المسلمين أن يهيئوا للدعوة الإسلامية ، وسائلها وإسبابها ، وأن لا تكون وليدة يوم وتخطيط ساعة على وجه الإرتجال .

وكان من جملة تهيئة أسباب الدعوة التربية العملية لإخراج العالم الداعى الغيور ، إن العلم بدون غيرة جامد لا شعور فيه ولا إحساس ، كما أن الغيرة وحدها بلا علم لا تصلح للقيادة والريادة والإرشاد وهذا الذى ينبغى أن لا نقع فيه فنضيع بين عالم بلا غيرة ولا إهتمام على حرمات الله أو غيور متحمس لا علم عنده يضل المسلمين .



العربى خفاقاً مرفرفا على ربوع الأرض شرقاً وغرباً ، ويبقي مجد القومية العربية خالداً تالداً ولا شك فى أنه لو فعل هذا لبادر إلى قبول دولته والإنضمام تحت لوائه القومى كل من عارضه وعانده ووقف فى سبيل دعوته ، وكيف لا يكون ذلك وهو الأمين الصادق الوفى الذى حكموه فى أكبر حادث من حوادث حياتهم المكية ألا وهو وضع الحجر فى مكانه من البيت فلم يكن ذلك فقط بل إنهم قاموا فعلا بعرض سلسلة من المفاوضات مع رسول ﷺ وقدموا بين يديه هذه الآمال العريضة التى هى غاية ما يتمناه أشرف أو أعقل رجل منهم إذ قالوا له : إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعناه لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، وكرروا المحاولة عارضين عليه الزعامة والمال ، فكان أن أعلن لهم فى صراحة ووضوح : ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثنى رسولا وأنزل علىّ كتاباً وأمرنى أن أكون بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم ، فإن تقبلوا عني ماجئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم « سيرة ابن هشام صفحة ١١٤ » .

لقد أعلن صاحب الدعوة حقيقة دعوته فى تمحيص دقيق يفصلها عن كل ما قد يلتبس بها من الأهداف والأغراض التى قد يضمرها فى أنفسهم عادة أرباب الدعوة الجديدة والمنادون بالثورة

الإخلاص هو رائد الدعوة

ومن هذا التخطيط تنطلق الدعوة وبعد هذه المقدمات والدراسات تسير رائدها الإخلاص وقائدها إسلام الوجه لله ، وبابها الصدق والتجرد من التفكير والإنتفاع بالمادية فقط والثمرات العاجلة ، وقد ضرب النبى ﷺ فى ذلك المثل الأعلى قولا وعملا .

أخرج الترمذى أن عمر رضى الله عنه دخل على النبى صلى الله عليه وسلم وهو على حصير قد أثر فى جنبه فقال : يا رسول الله لو اتخذت فراشاً أوثر ــ أى ألين واوطأ ــ من هذا ، فقال ﷺ : « مالى وللدنيا ما مثلى ومثل الدنيا إلا كراكب سار فى يوم صائف فاستظل تحت شجرة ساعة ثم راح وتركها » رواه الترمزى وصححه وابن ماجه ٢٥٥ /ج٢ .

وفى الحديث قال ﷺ : « إن الله لم يأمرنى بكنز الدنيا ولا باتباع الشهوات ، فمن كنز دنيا يريد بها حياة باقية فإن الحياة بيد الله عز وجل ، ألا وإنى لا أكنز ديناراً ولا درهما ولا أخبأ رزقا لغد » أخرجه أبو الشيخ فى الترغيب ٢٥٧ /٢ .

وألاصلاح وهذا سر من أسرار نجاح الدعوة فكل مصلح أو مجدد فى ميدان الدعوة يحيد عن هذا المنهج فهو أبعد عن النجاح وعن القبول والفلاح .

لقد سما الرسول ﷺ بدعوته فسمت وسمت حتى صفت وشعّت أنواره وروحانيته على هذه الدعوة فصدقت واكتملت ورقت وعزت حتى سخر الله أعداءها وكبار المعارضين لها ليفاوضوا صاحبها .



ولا تظن أن هذا التقشف والتقلل فى الحياة الذى تصوره هذه الأحاديث يعارض مبدأ العمل والسعى والبحث عن الكسب الطيب عن طريق التجارة والمعاملة وهى أصول حث عليها الإسلام وجعل لطالبها الصادق من الثواب والفضل ما لايخفى لأنه لا تلازم بينها وبين التقلل ، إذ قد يكون عاملا مجتهداً فى الاكتساب والسعى ثم هو فى نفسه متقلل متقشف متصدق محسن يده عليا ونفسه كريمة ينفع الخلف بالفرض والإحسان لانهم عنده على المال ولا تشوق إلى الدنيا ، يغلب كل أمانيه ويطغى على كل آماليه ، وليس هنا محل بسط هذا الموضوع .

وقد وجه النبى ﷺ التفكير الإسلامى الرائد فى ميدان الدعوة إلى هذه الحقيقة ، إذ قال فوق منبره : « إنى بين أيديكم فرط ، وأنا عليكم شهيد وإن موعدكم الحوض ، وإنى لأنظر إليه من مقامى هذا ، وإنى لست أخشى عليكم أن تشركوا ولكن أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها » رواه البخارى ٢٤٢ /٢ .

وسار على هذا المنهج السوى المصلحون السابقون من أصحابه والسلف الصالح فخافوا من بسطة الدنيا وبكوا لما رأوا ذلك وخشوا عاقبة ذلك بظهور الحسد والبغضاء والحقد والتنافس والفتنة .

وقد بكى عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما نظر إلى غنائم القادسية فقال له عبد الرحمن بن عوف : يا أمير المؤمنين هذا يوم فرح وسرور ، فقال : أجل ، ولكن لم يؤت هذا قوم قط إلا أورثهم العداوة والبغضاء ، أخرجه البيهقى ٢٤٤ /٢ .

الثانى : أن يتبع ما يوحى إليه من ربه .
الثالث : أن يتوكل على الله وحده فهو الكفيل بالمعاونة والمساعدة .

فالداعى إلى الله تواجهه الشدائد والمحن فلا تزحزحه عن إيمانه بالله وعن رسالة الحق فى ذاته ولا يرهب عدوه مهما بلغت قوته وتكتلاته مستعيناً بالله وحده غير متطلع إلى عون ومساعدة من جهة أخرى وله فى ذلك كله أسوة حسنة بصاحب الرسالة والدعوة النبى ﷺ ، ولذا قال تعالى بعد ذلك : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً » ، فكان نتيجة هذا الصبر أن رد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وأن أخرج أعداءهم الذين ظاهروهم من حصونهم ، وقذف فى قلوبهم الرعب وأورث المؤمنين أرضهم وديارهم وأموالهم بعد أن تحملوا البأس وأضرار الجوع والقلق النفسى من الحصار الذى ضرب حول المدينة .

ومن هذا نتعلم كيف ينبغى للدعاة أن يظهروا بالاستقامة والتجلد وعدم التقهقر عند مواجهة الشدائد والمحن والعقبات وأن لا يساور قلوبهم اليأس والوهن فيما إذا تأخر ظهور النتائج المرجوة لما قد بذلوا من الجهود ، وأن يظلوا يواصلون جهودهم على رغم كل هذا ، وأن لا تزل أقدامهم إذا ما عرض لهم مواقع الخطر والمضرة والطمع فى أثناء سيرهم فى سبيل غايتهم وأن يعودوا أنفسهم على العمل بسعى متصل ويروضوها على الأعمال الثابتة المنظمة البعيدة الأثر والنتائج وأن

أى أن الدنيا تقوى أسباب العداوة والبغضاء بين الناس بحصول ذلك لتشوق الأنفس الصغيرة لما فى يد غيرها .

فما كانت دعوتهم تلك وجهدهم وسعيهم إلا لرضوان الله تعالى وخير الآخرة ، تجردت عقولهم وأفكارهم وحركاتهم من العمل للدنيا فقط ، وحب الجاه والسعى لتكوين دولة أو حكومة ، وإنما كان لرضى الله سبحانه وتعالى ، فلما تحققوا برضاه وصدقوا فى طاعته حقق لهم رضاه عنهم بإطاعة الدنيا لهم وتسخيرها ، وجعل الدولة دولتهم ، والكلمة كلمتهم ، فكانت نتيجة طبيعية لما قدموا من جهاد وعمل وإيمان ، قال تعالى : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدوننى ولا يشركون بى شيئاً » .

وهذا الوعد بالاستخلاف مضمون وحاصل من الله سبحانه وتعالى فى مقابلة توفر الإيمان والعمل ، فإذا سعى المسلم فى تحقيق ما طلب منه وكلف به ، وصل إلى الحقيقة التى وعده الله بها وهى الخلافة فى الأرض ، أما من يسعى للنتيجة مع تركه أو تهاونه بالسبب الموصل فهو كمن يطلب النجاح من غير جد ومذاكرة .

لقد كان فى إمكان الرسول ﷺ أن يعقد للأمة العربية لواء تنضم إليه قريش والقبائل العربية ، ويكوّن أمارة عربية قوية موحدة يكون هو رئيسها ينتصر للعروبه ويكسر القومية الفارسية والرومية فيرتفع العلم

لا تكون الخطوات القريبة النتائج فى اليسير من الوقت هى كل الأمل وأمل الكل .

إن مما يهون على نفس الداعى معالجة الصبر أن يعلم كما علم السابقون ــ إن المحن والشدائد من الظواهر الملازمة للحركة الإسلامية وهى من أهم عوامل التكوين والإختبار فى الإسلام إن الإيمان القوى الراسخ هو الذي يصمد فى ساعة العسر ، أما الإيمان السقيم العليل فسرعان ما تكشفه المحن وتصدعه ، قال تعالى : « ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم أوليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين » .

إن الثبات فى وقت الشدة دليل لابد منه لإثبات صدق الإيمان ورسوخه ، قال تعالى : « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » .



رداؤه وأشفق عليه أبو بكر وهو يمثل العبودية الكاملة المطلقة فى مظهر طول الدعاء وشدة الضراعة والمناشدة ، يقول الله تعالى : (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين) .

وأن مغفرة الله أوسع من الذنب ، ورحمته أرجى من العمل وقد كان ﷺ يكثر من الاستغفار .

يقول ابن عمر : إنا كنا لنعد لرسول الله ﷺ فى المجلس الواحد مائة مره : رب اغفر لى وتب علىّ إنك أنت التواب الرحيم (أبو داود والترمذى ٢٣١ /٣) .

وان التوبة أول منزلة من منازل السالكين ، وساعة يستيقظ فيها القلب ويتنبه الحس ، ويفكر العقل ، وتصفو النفس فيمسك بأسباب التوفيق ويمدهُ الحق سبحانه بتصحيح العزيمة والأخذ فى جميل الرجعى ، وحل عقدة الأحرار وكبح لجام النفس عن متابعة الشهوات ومفارقة الزلة وهجر السوء وإخوانه وإخراج حظ الشيطان من النفس فتصفو وتتنور وتتسع حتى يخرج حظ النفس من النفس .

إن الداعى لا غنى له أبداً عن علاقة روحية وصلة قلبية يطمئن القلب ، وتتغذى الروح ، وتسكن النفس ، فتنبذ الهَمَّ وتطرح القلقَ الذين هما أعدى أعدائها ، وتقطع انشغال الفكر بالهموم المادية والاسترسال فى الوساوس والهواجس التى تجعل الإنسان عاجزاً عن القيام بواجبات هذه الحياة .

المجاهدة بتربية النفس

على التحلى بمظهر القدوة

وذلك بتطبيق آداب وصفات المؤمن فى الحياة العملية وتصديق العمل العلم حتى يوافق السلوك ما تقتضيه الدعوة .

ونبينا ﷺ خير من يمثل صدق العمل واستقامة السلوك وطهارة السريرة وصلاح السيرة ، لأنه قدوة حسنة ، قال تعالى : (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر) ، وهو القائل لهم : أنا أخشاكم لله وإتقاكم له وأعلمكم به وأعرفكم بحدوده .

ولم يهمل القرآن بيان هذه الأخلاق الزكية ، وتكفلت كتب السنة المطهرة بتفصيلها ، وألفت فيها الكتب المخصوصة كالشمائل ودلائل النبوة والخصائص ، والتى تضمنت أيضاً النماذج الصادقة ، والأمثلة الرائعة ، والمواقف المشهورة له فى هذا المجال .

وهذا كله يعلمنا أن على المسلمين أولا أن يصلحوا من أنفسهم وأن هذا ـــ أى إصلاح أنفسهم ـــ هو بنفسه جزء عظيم من دعوة غيرهم إلى للإسلام .

المجاهدة لتربية النفس

ولا شك أن دعوة هذه حقيقتها وصفتها هى ثورة عامة وانقلاب شامل لابد أن تقترن بالمجاهدة لتكون المجاهدة بكل ما فيها من معانى أعظم رفيق فى كل مراحل هذا الطريق ، ولقد أوضح القرآن هذا المبدأ فى كثير من الآيات ، وبينه النبى ﷺ فى عشرات الأحاديث الصحيحة المرفوعة ، وإذا درسنا القرآن الكريم ، ودرسنا كتب السيرة النبوية ، وأحوال الصحابة رضوان الله عليهم وجدنا فى طياتها نماذج عملية لا تحصى يشمل جميعها اسم المجاهدة :

١ ـــ المجاهدة لتربية النفس على الجهاد ببذل النفس والتضحية .

٢ ـــ وتربية النفس على الكرم والإيثار ببذل المال والإنفاق بسخاء ودون تردد .

٣ ـــ وتربية النفس على الصبر بالثبات والصمود ومواصلة السير .

٤ ـــ وتربية النفس على الهجرة بترك الوطن والسعى الحثيث لبث الدعوة والمناداة بترك ما حرمه الله تعالى ، والهجرة عما نهى عنه .

لأن أى نظرية مهما تبلغ من الصحة ودقة الفكر أو أى تعليم مهما يكن رائعاً ويقع من الناس موقع الإعجاب ، أو أى هداية مهما تجمع من صنوف الخير لا يغنى ولا يثمر ولا يبقى إلا إذا كان له من يمثله بعمله ويدعو إليه بأخلاقه وفضائله ، ويعرفه إلى الناس بالقدوة والأسوة فيقتدى الناس بدعوته من طريق العمل بعد العلم معجبين بسجايا هؤلاء الدعاة معظمين لأخلاقهم مكرمين طهارة قلوبهم وزكاة نفوسهم وسماحة أخلاقهم ورجاحة عقولهم وحصافة آرائهم وسداد أفكارهم .



٥ ــ وتربية النفس على الرجوع إلى الله بإسلام الوجه له وذكره بالقلب واللسان ودعائه فى كل آن .

٦ ــ وتربية النفس على التحلى بمظهر القدوة الحسنة بالتمسك بالمبادىء التى يدعو إليها وتصديق عمله قوله .



المجاهدة ببذل النفس

وذلك عن طريق الجهاد فى سبيل الله والكفاح الشريف عن تلك الحركة الدائبة المستمرة التى يقام بها للوصول إلى الغاية الشريفة المشروعة ، فلا مآرب شخصية ولا أغراض ذاتية ولا اعتبار مصلحة أمة دون أمة أو النهوض بشعب دون شعب ، ولا تتشوف إلى تمليك الأرض والاستيلاء على هذه المملكة أو تلك وإنما هو فى سبيل الله الذى يتحقق مظهر بروزه ويتجسد بنيانه فى سعادة المجتمع البشرى والصعود به إلى معارج الفلاح ليتمتع هذا المجتمع بفكرة السعادة البشرية ومنهاجها العملى اللذين أكرمه الله بهما وفضله بهما على سائر الأديان والشرائع ، مع التجرد عن كل غرض والتبرؤ من كل هوى أو نزعة شخصية أو نيل الجاه والشرف والسمعة أو السمو بنفسه وقومه والاستبداد بزمام الأمر وتبوأ المناصب والمراتب : (الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت) .

جاء فى الحديث : أن أعرابياً قال للنبى صلى الله عليه وسلم : الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه ، فمن فى سبيل الله ؟ .

المجاهدة لتربية النفس

على الصبر والثبات والصمود ومواصلة السير

لقد مرت على المسلمين أقسى المحن وأعظم الشدائد فواجهوها بالصبر وعدم اليأس والضجر بل ازداد نشاطهم فواصلوا محاولاتهم في صمود وثبات فخرجوا من هذه المحن القاسية أشد ما يكونون وخرج مجتمعهم أقوى ما يصل إليه مجتمع في شبابه وفتوته وأصبح استعدادهم لمواجهة التحديات الخارجية أوسع مدى وإكثر خبرة .

مكث النبي ﷺ إحدى عشرة سنة وهو يواصل جهاده بصبر متواصل لاقى فيها من الجفوة والغربة الهائلة بينه وبين قومه وجيرانه ما جعلت حياته لا راحة فيها ولا استقرار تتربص قريش في كل دقيقة منها بقتله وهو صابر محتسب قائم بأداء النصيحه إلى قومه صبر الرجل الذى امتلأ قلبه بالرجاء العظيم فعصمه عن الانقطاع وقاده إلى تحقيق معانيه وبلوغ غاياته وما نقص شيء من عزيمته يوما ، ولم ، يضعف شيء من قوته وسعيه فتتساقط الحواجز أمام قوته وهمته وتتهاوى المحن والشدائد أمام جهاده وصبره صبر الرجل الذى اقترن صبره بأعظم أنواع الأمل

العريض ، فما دعا عليهم أن لا يبقى على الأرض منهم دياراً ، بل دعاهم أن يهديهم واعتذر عنهم بأنهم لا يعلمون إذ قال : اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون . ثم عبر عن أمله هذا لجبريل عليه السلام لما عرض عليه هلاكهم إذ قال : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله عز وجل وحده لا يشرك به شيئاً كما جاء فى الصحيح ٢٥٤ /١ .

ولقد أخبرنا ﷺ عن نفسه بقوله : « لقد أوذيت فى الله وما يؤذى أحد ، وأخفت فى الله وما يخاف أحد ، ولقد أتت على ثلاثون من بين يوم وليلة ومالى ولبلال ما يأكله ذو كبد إلا ما يوارى إبط بلال » ، أحمد والترمذى وابن حبان ، الترغيب ٢٤٢ /١ .

ولقد ابتلى المؤمنون يوم أن تجمع الأحزاب وزلزلوا زلزالا شديداً إذ لم يعهد المؤمنون فى خصومتهم مع أعدائهم فى الغزوات السابقة هذا الجمع الحاشد ولكن نزل التوجيه الإلهى فى قول الله تعالى لرسوله الكريم : « يا أيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين ،إن الله كان عليما حكيما ، واتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيراً ، وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا » .

فأمره القرآن بثلاثة أمور :

الأول : أن يتقى الله وحده ولا يخشى غيره من أعدائه ولا يطيعهم ولا يستسلم إليهم .

المجاهدة بتربية النفس

على الرجوع إلى الله

وذلك بإدامة الاشتغال بذكره والتوجه بالدعاء إليه فى كل حال وكثرة الاستغفار والتوبة والإنابة .

والناظر فى السيرة المشرفة يرى تمام محافظة النبى ﷺ على ذلك واهتمامه به وملازمته له مع الترغيب فيه والحث عليه تشريعاً وتعليماً للدعاة على توثيق صلاتهم بالله وربط قلوبهم به ، ولزيادة الاطمئنان بكبير الثقة المطلقة فى وعد الله ورحمته ولطفه وعنايته ، وكشف السوء وإجابته دعوة المضطر وتأييده ونصره وإظهار الفاقة بين يديه .

ولقد تحدث القرآن فى آيات جمة ، وامتلأت كتب السنة بالأحاديث الصحيحة الثابتة التى تصور لنا الطرق المشروعة والثابتة لتوثيق الصلة بالله وتقوية الرابطة القلبية للمسلم وللداعى .

وتبين أن ملاحظة هذا المقصود من أعظم المواد والأصول التى ينبغى أن يضعها الداعى فى منهجه ويجعلها نصب عينيه لأن ذلك هو

منهج القدوة الحسنة الذى سار عليه خلفاؤه المصلحون السابقون الذين جاءوا من بعده .

بل لقد ألفت الكتب المخصوصة فى بيان تلك السبل وفضلها وشرفها وكيفيتها ، وأفرد المحدثون فى مصنفاتهم أبوابا وفصولا مخصوصة تتعلق بذلك ، وتتناول الحث على الذكر والدعاء والاستغفار والتوبة وكيف كانت رغبة النبى ﷺ ورغبة أصحابه فى ذكر الله ودعائه واستغفاره والرجوع إليه بالتوبة ، وكيف كانت مداومتهم على ذلكم فى الصباح والمساء ، والليل والنهار ، والسفر والحضر ، وتحريضهم وترغيبهم على ذلك .

وأخبرتنا أن الذاكر سبق غيره ، وأن الله يذكره فى نفسه وفى ملأ طاهر ، وأنه من السبعة الذين يظلهم الله تحت ظله وأن الله معه ، وأن الذاكر يرتع فى رياض الجنة ، وأنه ذهب بكل خير ، وأنه أفضل درجة عند الله يوم القيامة ، وأنه تحفه الملائكة وتغشاه الرحمة ، ويغفر له ذنبه وتبدل سيئاته بحسنات ، ويسعد جليسه وأن الجنة سبيل النجاة والفوز لمن اختار ملازمة فضائل الأعمال ، وأنه أكبر من كل شىء ، وأنه مكفر للخطايا ، وأنه لا عمل أنجى منه للعبد من العذاب ، وأنه أحب الأعمال إلى الله وأن الدعاء مفتاح الأجابة ، ومستروح أصحاب الفاقة ، وملجأ المضطرين ، ومتنفس ذى المآرب .

فهذا رسول الله ﷺ يقف طوال ليلة الجمعة فى العريش الذى أقيم له فى غزوة بدر يجأر إلى الله تعالى داعياً ومتضرعاً باسطاً كفيه إلى السماء يناشد الله عز وجل أن يؤتيه نصره الذى وعده حتى سقط عنه

فقال ﷺ : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله ، فلا يقبل الله من الجهاد إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم ، وابتغاء لمرضاته ، لا يشوبه شىء من الأغراض النفسية أو الطائفية أو القومية » .

لقد رغب الله فى الجهاد أعظم ترغيب وأجزل ثواب المجاهدين والشهداء فلم يلحقهم فى مثوبتهم إلا من عمل بمثل عملهم ، ومن يقتدى بهم فى جهادهم ومنحهم من الامتيازات الروحية والعملية فى الدنيا والآخرة ما لم يمنحها سواهم وجعل دماءهم الطاهرة الزكية عربون النصر فى الدنيا وعنوان الفوز والفلاح فى العقبى وتوعد المخلفين القاعدين بأفظع العقوبات ورماهم بأبشع النعوت والصفات ووبخهم على الجبن والقعود ، ونعى عليهم الضعف والتخلف وأَعَدَّ لَهم فى الدنيا خزيا لا يرفع إلا إن جاهدوا ، وفى الآخرة عذابا لا يفلتون منه ، ولو كان لهم مثل أحد ذهبا ، واعتبر القعود والفرار كبيرة من أعظم الكبائر وإحدى السبع الموبقات المهلكات .

لقد اعتنى الإسلام بشأن الجهاد والجندية واستنفار الأمة وحشدها كلها صفاً واحداً للدفاع بكل قواها عن الحق ، اعتناءاً لا تجده متكاملا فى أى نظام قديم أو حديث دينى أو مدنى ، فهذه الآيات البينات المطهرة والأحاديث الصحيحة المشرفة تفيض بكل هذه المعانى السامية وتدعو بأفصح عبارة وأوضح أسلوب إلى الجهاد والقتال والجندية وتقوية وسائل الدفاع والكفاح بكل أنواعها من برية وبحرية

وغيرها على كل الأحوال والملابسات ، وتوبخ القاعدين الجبناء وتستثير الهمم لحماية الضعفاء وتخليص المظلومين وتشجيع الخائفين على خوض المعامع ومقابلة الموت بصدر رحب وجنان جرىء وتبين لهم أن الموت سيدركهم لا محالة وأنهم خير لهم أن يموتوا مجاهدين لينالوا أعظم العوض عن حياتهم الفانية المهددة بالموت على أى حال ، وتشيد بموقف المجاهدين وعلى رأسهم السيد الكريم ﷺ وتعلن أن هذه هى مهمته المطهرة وسنة أصحابه الغر الميامين : (لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون أعد الله لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم) .

ولقد قام النبى ﷺ بهذه المهمه خير قيام وضرب لهم أروع الأمثال من معانى التضحية والجهاد حتى قال قائلهم يوم أن كان بمكة قبل الهجرة وهو وحيد بينهم غريب بدينه عنهم إنفرد عن جميعهم بمبدئه فاجتمع عليه الكل بجمعهم فى تلك الظروف المظلمة ، يقول قائلهم فى اجتماع لهم بالحجر : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل سفه أحلامنا وشتم آباءنا وعاب ديننا وفرق جماعتنا وسب آلهتنا ، لقد صبرنا منه على أمر عظيم (رواه أحمد ص ٢٤٦ /٥) .

وهذا هو رسول الله ﷺ يستعرض الجيوش ويُنَظِّم الصفوص ويقف وسط المعارك يقاتل الى جانب أصحابه يشاطرهم الأذى ويشاركهم الآلام ـــ ويقول : « لأن أقتل فى سبيل الله أحب إلى من أن

يكون لى أهل المدر والوبر » ـــ أى الحواضر والبوادى ـــ أخرجه النسائى .

ويتمنى أن لا يغيب عن مشهد ولا تفوته وقعة ، فيقول : « والذى نفسى بيده لو لا أن رجالا من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عنى ولا أجد ما أحملهم عليه ما تخلفت عن سرية تغزو فى سبيل الله ، والذى نفسى بيده لوددت أننى أقتل فى سبيل الله ، ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل » (البخارى ومسلم) .

هذا النبى العابد الذى كان يقوم الليل حتى تتفطر قدماه والذى كان فى كثير من الأحيان يواصل الصيام ، هو المكافح المجاهد الذى لم يتراجع فى غزوة قط إذ تراجع الأبطال وفر الصناديد ، ولم يتزحزح عن موقفه إذ لم يثبت الفرسان .

وهذا على يقول : كنّا إذا حمى الوطيس ـــ أى الحرب إتقينا برسول الله ﷺ ـــ أى احتمينا به وفيه ـــ فيكون أقربنا إلى العدو .

كل هذا له كان أعمق الأثر فى نفوس صحابته ـــ رضى الله عنهم ـــ فنهجوا منهجه وتحملوا فى سبيل عقيدتهم ما تشيب لهوله الوالدان ، فلم يهنوا ولم يحزنوا ولم يملوا ولم يلينوا ، واستمدوا من روحه العظيمة ونفسه الكبيرة ماهوّن عليهم كل ألم وحبب إليهم كل تضحية ، فطابت نفوسهم بما يلقونه فى سبيل الله أملاً فى مغفرته وطمعاً فى نصره ، فكانوا فى تضحيتهم وثباتهم واستبسالهم وتمسكهم بعقيدتهم المثل الصادق الكامل الذى جذب أنظار المشركين واستولى على قلوبهم وأثار

دهشتهم وإعجابهم ، فكان من أسباب إقبالهم عليهم وانضوائهم تحت لوائهم ، وهذا بلاشك أثر إيمان القائد فى نفوس جنوده .

ومن هذه المدرسة ظهرت مواقف الأبطال وكانت مصارع الشهداء ، ومن هذه القدوة الحسنة استمد بلال القوة فى صبره على العذاب حينما ألقاه أمية على الرمضاء الملتهبة فى أشعة الشمس المحرقة . وقد أثقل صدره بحجر يزهق أنفاسه فلا يفتأ يردد فى محنته كلمة التوحيد أحد ، أحد ،

وهؤلاء هم آل ياسر يصب عليهم المشركون أشد العذاب فيستعذبون الهلاك .

ومن هذه المدرسة انبعثت أسمى معانى الفداء الحقة وأقوى بواعث التسابق فى التضحية .

ولا شك أن المسلمين فى أى عصر من عصورهم قبل هذا العصر المظلم الذى ماتت فيه نخوتهم لم يتركوا الجهاد ولم يفرطوا فيه حتى علماؤهم والمتصوفة منهم والمحترفون وغيرهم فكانوا على أهبة الاستعداد .

هذا عبد الله بن المبارك الفقيه الزاهد كان يتطوع فى أكثر أوقاته بالجهاد ، وكان عبد الواحد بن زيد الصوفى الزاهد كذلك وكان شقيق البلخى فى وقته يحمل نفسه وتلامذته على الجهاد .

وكان البدر العينى شارح البخارى الفقيه المحدث يغزو سنة ويدرس سنة ويحج سنة .

وكان القاضى أسد بن الفرات المالكى أميراً للبحر فى وقته (كذلك كان السلف رضوان الله عليهم).



الدعـوة إلى الهجـرة

(المجاهدة لتربية النفس على الهجرة بترك الوطن ومفارقة الأهل إذا اقتضى الأمر) .

إن صاحب الدعوة لا يؤلمه أن يستقبل فى سبيل دعوته الموت فضلا عن مفارقة الأهل والوطن ، والقرآن الكريم يقرر حقيقة الهجرة إلى الله سبحانه وتعالى ، وأنها ترتبط بالإيمان ارتباطاً كليا لا يطغى عليه أىّ دافع ولو كان الأبوة أو البنوة والزوجة والعشيرة ، قال الله تعالى : « قل إن كان آباؤكم وإبناءكم وأخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين .

فمسألة الهجرة فى الحقيقة هى مسألة الإيمان ، وسيدنا رسول الله ﷺ هو فاتح هذا الباب بأمره وفعله .

إن قصة الهجرة هى قصة الإيمان الذى خالطت بشاشته القلوب والعقيدة التى امتزجت بدم المسلم ولحمه ، والدين الذى سيطر على

النفوس وغمر المشاعر حتى غدا المسلمون الأولون يفتدون دينهم بأعز ما يملكون ، وقد كان هناك أصنام تعبد من دون الله تعالى ، ودماء تراق فى سبيل الشيطان ، وحرمات تهتك من أجل ثروة أو مطمع ، وحكام يفرغون على أنفسهم صفات الألوهية والجبروت ، وشعوب مستعبدة لفرد أو أفراد ، وأمم تائهه حائرة ، وفوضى فى الدين والخلق والاجتماع والسياسة تملأ الآفاق وتشوه وجه الحياة وصفحة التاريخ ، وقد وضع الرسول ﷺ بذرة الدعوة الإسلامية فى أرض مكة بأمر ربه ، إلا إن هذه البذرة لم تجد أرضا خصبة تنبتها وتحمى نموها فتحول إلى أرض طيبة أرض المدينة المنورة فقبلت تلك البذرة المباركة وحمت شجرتها وفدتها بالنفس والمال ، ولم يهاجر ﷺ هربا ولا تخوفا ، وإنما كانت هجرته فاتحة خير وبركة على الأسلام والمسلمين .

إن الهجرة ثورة على الشرك والمشركين الذين يفتنون المؤمنين فى عقيدتهم وهم فى مكة قلائل مستضعفون مغلوبون على أمرهم معذبون ، ولم يستطع الرسول ﷺ دفع العذاب عنهم .

إن قصة الهجرة قصة الإيمان وجمع المسلمين تحت راية واحدة هى راية الإسلام ، وقيادة واحدة ، قيادة محمد ﷺ إنها هجرة التضحية بكل غال ورخيص بالنفس والمال والدار والولد والأهل والعشيرة ، إن تلك الهجرة درس عظيم فى قوة العقيدة وعظمة النفس وشدة الإيمان فى سبيل انتصار دين الله وإعلاء كلمته وانتشار رسالة

الإسلام ودعوته فنشأت أمة وظهرت جيوش واستعر كفاح وعلت راية لا إله إلا الله ، محمد رسول الله (ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون) .

ولقد تأثر الصحابة رضى الله عنهم بهذا المنهج فتركوا أوطانهم العزيزة ، مع أن فراق الوطن شديد على النفوس بحيث لم يرجعوا إلى أوطانهم إلا إلى الموت ، فكان ذلك أحب إليه من الدنيا ومتاعها ، وقدموا الدين على الدنيا فلم يبالوا بضياعها ، ولم يلتفتوا إلى فنائها ، وفروا من بلاد إلى بلاد احتفاظا لدينهم من الفتنة فكأنهم كانوا قد خلقوا للآخرة وكانوا من أبنائها فصارت الدنيا ، كأنها خلقت لهم ، لقد هاجر الكبار والصغار والرجال والنساء إلى الحبشة وإلى المدينة المنورة وقد وسع ﷺ مفهوم الهجرة ، وأن ذلك يشمل الهجرة عما نهى الله عنه بترك المعاصى ، يقول ﷺ لفديك أحد الصحابة : يافديك :

أقم الصلاة وآت الزكاة واهجر السوء واسكن من أرض قومك حيث شئت تكن مهاجراً ، (رواه البغوى بن منده وأبو نعيم ، كذا فى كنز العمال ٣٠٣١ /ج٨)



المجاهدة بتربية النفس

على الكرم والإنفاق

وذلك ببذل المال بسخاء ودون تردد فى مواطن البذل التى تعود بالخير الكبير والأجر الوافر ، وقد رتب الله على الإنفاق من خصال الخير والفضل ما يجعل المؤمن الصادق مسارعا إليها حريصا عليها ، فمن ذلك أن الله يزيد فى نعمته عليه لأن الإنفاق مظهر من مظاهر الشكر ، والله تعالى يقول : (لئن شكرتم لأزيدنكم) .

ومن ذلك أن الله يوكل ملكا من الملائكة يدعو له بالخلف عما أنفق ، وقد جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما : اللهم اعط منفقاً خلفاً ويقول الآخر : اللهم اعط ممسكا تلفاً .

ومن ذلك أن الله تعالى يحرسه من البلاء لما روى رزين عن على رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : بادروا بالصدقة فإن البلاء لا يتخطاها .

ومن ذلك أن الله يحفظ عليه صحته ويمن عليه بالشفاء ، لما جاء فى الحديث : حصنوا أموالكم بالزكاة وداووا مرضاكم بالصدقة ، وقد كان للقدوة الحسنة فى هذا الباب أكمل المواقف وأجل الشواهد ، يقول جابر بن عبد الله : ما سئل رسول الله ﷺ عن شيء فقال : لا ، وعن أنس أن رجلا سأله فأعطاه غنما بين جبلين فرجع إلى قومه وقال : أسلموا فإن محمداً يعطى عطاء من لا يخشى فاقة ، وأعطى غير واحد مائة من الإبل ، وأعطى صفوان مائة ثم مائة ثم مائة ، وهذه كانت خلقه ﷺ قبل أن يبعث ، وقد قال له ورقة بن نوفل : إنك تحمل الكل وتكسب المعدوم ، ورد على هوزان سباياها وكانت ستة آلاف ، وأعطى العباس من الذهب ما لم يطق حمله وحمل إليه تسعون ألف درهم فوضعت على حصير ثم قام إليها فقسمها فما ردّ سائلا حتى فرغ منها وجاءه رجل فسأل فقال ما عندى شيء ولكن ابتع على فإذا جاءنا شيء قضيناه ، فقال له عمر : ما كلفك الله ما لا تقدر عليه ، فكره النبى ﷺ ذلك ، فقال رجل من الأنصار : يارسول الله أنفق ولا تخش من ذى العرش إقلالا فتبسم رسول الله ﷺ وعرف البشر فى وجهه وقال : « بهذا أمرت » ذكره الترمذى .

روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : لو كان لى مثل أحد ذهباً لسرنى أن يمر على ثلاث ليال وما عندى منه شيء إلا شيء أرصده لدين .

وروى البخارى عن عقبة بن الحارث قال : صليت وراء النبى ﷺ بالمدينة العصر فسلم ثم قام مسرعا فتخطى رقاب الناس إلى بعض حجر نسائه ، ففزع الناس من سرعته فخرج عليهم فرأى أنهم قد عجبوا من سرعته قال : ذكرت شيئاً من تبر عندنا فكرهت أن يحبسنى فأمرت بقسمته .

ولقد سار على هذا المنهج الصحابة الكرام رضى الله تعالى عنهم وحققوا بأفعالهم الصادقة صدق الدعوة وصحة المبدأ وواقعية المنهج وإمكانية التطبيق ما دام هناك عزم وتصميم وهمة خلق كريم ، وأدل دليل على ذلك قصة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، فهذا عبد الرحمن بن عوف لما قدم المدينة وآخى رسول الله بينه وبين سعد بن الربيع الأنصارى رضى الله عنهم ،قال له سعد : أى أخى أنا أكثر أهل المدينة مالا فلك شطر مالى وتحتى امرأتان فانظر أيتهما أعجب إليك حتى أطلقها ، فقال عبد الرحمن : بارك الله لك فى أهلك ومالك دلونى على السوق فدلوه فذهب فاشترى وباع فربح ، الحديث رواه أحمد . وهؤلاء الأنصار يقولون للنبى ﷺ لما جاء المهاجرون : يارسول الله اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل ، رواه البخارى .

واعترف المهاجرون بهذا الفضل وهم أهل الفضل فقالوا : يارسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة فى قليل ولا أحسن بذلا من كثير ، لقد كفونا المؤونة وأشركونا فى المهنأ .

رواه أحمد كذا فى البداية ٢٢٨ /٣ .

ومواقف الصحابة الكرام فى هذا الباب لا تنكر وهى كلها مستمدة من القدوة الحسنة رسول الله ﷺ .

وإن من أعظم ركائز الدعوة الإسلامية اليوم هو بذل الأموال فى سبيلها بسخاء ومسارعة واستجابة كاملة ، ونحن نرى ما يبذله أعداء الإسلام اليوم من أموال طائلة وإمكانية قوية فى سبيل نشر أفكارهم وترغيب الناس فيها وجذبهم إليها وفى سبيل إفساد عقائد المسلمين وزعزعة إيمانهم وإفساد أخلاقهم وإدخال الشبه عليهم فى دينهم وإضاعة ثقتهم فى نبيهم وفى أئمتهم وفى إحاديثهم وفى قرآنهم وفى رواتهم مع ما يقابل هذا من تإخر المسلمين عن الاستجابة الكاملة للمشاركة الفعالة فى المشاريع الخيرية والأعمال الإسلامية البناءة واحتضان مصادر الصلاح والإصلاح ورعاية رجالها وتأييدهم وتنشيطهم والقيام بحاجتهم وكف أيديهم عن السؤال وصون وجوههم عن الابتذال ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

ومع هذا الضعف والتأخر فإن هناك إقبالا كبيراً على الإسلام برغبة صحيحة صادقة عن اقتناع ونظر ، ونلاحظ أيضاً تغيراً كبيراً فى نظرة أعداء الإسلام والجهلة بحقائقه ، وذلك برجوع مشاهد وملموس إلى قواعد للبحث والنظر والدراسة فيها مكسب للإسلام وفيها أمل كبير لنا ننتظر به خيراً أكبر ومقصداً أحسن ونية أسلم ، ومن يهد الله فهو المهتدى ومن يضلل فلا هادى له .



الخاتمة

إن هذه السيرة العطرة فى شخصية هذا النبى ﷺ وصحبه الكرام رضوان الله عليهم ترسم المنهج السوى والطريق المستقيم والسنن الواضحة لدعاة الصلاح والإصلاح وأساتذة الإرشاد والتعليم ، وتضمن لهم إن ساروا عليها النجاح والفلاح ، وتحقيق المرام على أكمل وجه وأحسنه .

وإن هذا الفراغ الفكرى والخلاء الهائل المهيمن على العقول عن هذه السيرة الكريمة ، وعن هذا التاريخ الإسلامى المجيد الذى خرج أمثال أولئك الأبطال الغر الميامين والغزاة الفاتحين قادة العالم وأساتذة الحضارة الإسلامية ، حماة الإسلام ، الأعزة الأتقياء الذين هدوا العالم وَدكُّوا العروش وفتحو البلدان وثقفوا بالمعارف الأذهان وأسسوا حضارة إسلامية مزدهرة على تقوى من الله ورضوان وبنوا صرح دولة إسلامية عتيدة من الشرق إلى الغرب .

هذا الفراغ عن هذه السيرة أمر له خطره الجسيم ، وعاقبته الوخيمة ونتيجته السيئة فى الأمة الإسلامية إن لم نرجع إلى سيرة مجدنا القديم ونستمد حضارتنا من أصول تلك الحضارة العريقة ، ونكون على

صلة وثيقة تامة بأبطالنا ورجالنا وتاريخ حياتهم الذين تخرجوا فى مدرسة الإنسان الكامل ﷺ ، فهم الذين لا يؤخذ إلا عنهم ولا يقتدى إلا بهم ، ولا يسمع إلا لهم ، ولا يصلح لنا حال إلا بما صلح حالهم به .

نسألك اللهم أن تبعث لهذا الدّين الراعى الأمين والقائم الرشيد الذى يعيد لنا به المجد ، ويبعث فينا منه النهضة يجمع الشتات ويرفع الرايات ويصلحُ الأمة ويكشف الغمة ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، يقيم حكمك ويمضى أمرك ، وينشر عدلك ويغار على محارمك ، وينصر عبادك المؤمنين آمين .

والحمد لله رب العالمين ، ، ،

